تحليـل الخطـاب من مدخل سوسيـولوجـيا المعـرفة: المرتكزات واستراتيجية التحليل

Discourse analysis from the sociology of knowledge perspective : The fundamentals and strategy of analysis

بـويفـر عبد الحـق: بـاحـث دكـتـــوراه
كلية علوم الإعلام والاتصال جامعة الجزائر 3

تـاريخ إرسال المقال: 2018/10/17 **تـاريخ قبول المقال:** 2018/12/11

الملخص

يستعرض هذا المقال الخلفية المعرفية والخطوات الإجرائية لتحليل الخطاب من منظور علم اجتماع المعرفة التي يطرحها الباحث الألماني راينر كيلر R.Keller والمعروفة لدى الدوائر البحثية بـ "تحليل سكاد" SKAD analysis. وقد أرست هذه المقاربة دعائمها انطلاقًا من افتراض محوري يرتكز على أهمية التناسق بين مفهوم الخطاب وخطواته التحليلية. يُنظر إلى هذه المقاربة التحليلية ضمن أفق "مشروع بحثي" يأخذ مكانه في إطار التحليل التأويلي الذي يجسد التوجّه الإمبريقي القائم على التأويل مفتاحًا لفهم وشرح وتفسير الظواهر الاجتماعية، وهو تحليل يستهدف في جوهره إعادة النظر في مسألة مادّية الخطاب والممارسات الخطابية والعدّة المرجعية وتموضعها السوسيوتاريخي من خلال الاعتناء بجوانب المعرفة لتحليل البنية الرمزية للعالم الخارجي الذي يبنيه ويقدمه الخطاب على أنه حقيقة اجتماعية.

الكلمات المفتاحية: تحليل سكاد للخطاب، الخطاب، التحليل التأويلي، سوسيولوجيا المعرفة، مادية الخطاب، عدة الخطاب، الممارسات الخطابية.

المؤلف المرسل: بويفر عبد الحق، abdelhakbouiffer@gmail.com

المنارة للاستشارات

Abstract

This paper introduces the procedural steps for the sociology of knowledge approach to discourse analysis (SKAD analysis) put forward by German scholar Reiner Keller. This approach is based upon the importance of consistency between the concept of discourse and its units of analysis. Furthermore, SKAD analysis is relied upon interpretation as a key way to understand social phenomena, aimed at reviewing the materiality of discourse, discursive practices, dispositif and their socio-historical position by taking into account the knowledge side of analyzing the symbolic structure of the world presented as a social reality.

Key words: SKAD analysis, Discourse, Sociology of knowledge, Interpretation analysis, Materiality of discourse, Dispositif, Discursive practices.

1- مقدمة

يسود اعتقاد بأن مفهوم الخطاب ومنطلقاته الفكريّة تُعين الخطوات المنهجيّة لتحليل الخطاب، ونجد لهذا الطرح حضوراً في الخلفية المنهجيّة لتحليل الخطاب في المدارس الكلاسيكية بتوجّهها اللّساني وغير اللّساني. ويعني القبول بهذا الموقف القبول كذلك بصحة التفسير الذي يربط مبادئ هذا التّباين بعدم التجانس الحاصل في مفهوم الخطاب الظاهر بين التيارات البحث في دراسات الخطاب، بشكل أعطى لنا أساليب مُتعدّدة في التحليل ومعالجة النص على العموم، وهذا التباين ليس إجرائيًا ينحصر في الخطوات التحليلية بقدر ما يُترجم اختلافًا في التموقعات الإبستيمولوجية والأطر الفكرية التي ارتكزت عليها مقاربات تحليل الخطاب. وهذا ما يُسعفنا الباحث الألماني راينر كيلر R.Keller في استيعابه خصوصًا عندما يورد هذا التفسير بل ويُقرّه في سياق سعيه لتأسيس مقاربة تحليل الخطاب من منظور علم اجتماع المعرفة Wissebssoziologische diskursanalyse* والمعروفة اختصارًا بـ SKAD analysis مُركّزًا ذلك على متانة الصلة بين مفهوم الخطاب وخطواته التحليلية المُشكلة لـ "مشروعه البحثي"، لذا ما هي الركائز المعرفية التي تتكئ عليها مقاربة "سكاد" لتأسيس مفهوم للخطاب؟، وما هي الاستراتيجية التحليلية التي تقترحها هذه المقاربة لتحليل النص الخطابي من مدخل سوسيولوجا المعرفة؟.

2- مفهوم الخطاب في مقاربة "سكاد" التحليلية

يقترب راينر كيلر R.Keller من مفهوم الخطاب عبر مد الجسور بين مفهوم ميشال فوكو M. Foucault للخطاب من جهة، وبين أسس الباراديغم البنائي في

المنارة للاستشارات

العلوم الاجتماعية عند بيتر بورغر P. Berger و توماس لوكمان T. Luckmann من جهة أخرى. على هذا الأساس، يتغذى فهم كيلر للخطاب من فكرتين جوهريتين وهما :

- البنية الداخلية للخطاب عند ميشال فوكو M. Foucault
- دور الفاعلين الاجتماعيين في بناء الخطاب.

1.2 - البنية الداخلية للخطاب عند فوكو

تتجلى أهمية مراجعة التراث الفكري لفوكو عند كيلر كونها تُعد مدخلاً لـ"فهم الخطاب من منظور سوسيولوجيا المعرفة"[1]. فقد نال الخطاب الاهتمام كمفهوم مركزي في مقاربة فوكو التي تنظر إلى الخطاب كونه "يضبط ويحدّد الممارسات الاجتماعية، ولا يشكل فحسب تمثّلاً للمواضيع الخارجية، ولكنّه يدخل في سيرورة بنائها"[2]، وبوسع الخطاب أن يكون "ساحة للمعركة.. صراع القوى حول شرعية تعريف الظواهر"[3].

على خط متصل، اشتغل فوكو على التفكير في الخطاب انطلاقًا من فهم طبيعة علاقة التي تربط المعرفة بالسّلطة من رؤية سوسيولوجية، وهو "توّجه كان يعاني تهميشًا في الفكر الفرنسي منذ أوائل ستينيات القرن العشرين، حتى استطاع فوكو أن يؤسّس لسوسيولوجيا تاريخ المعرفة خاصة به"[4]. بيد أن راينر كيلر R.Keller يعتقد بوجود قصور في طرح فوكو بشأن بنية الخطاب ممثلة في:

أ- اهمال لأدوار الفاعلين الاجتماعيين في صناعة الملفوظات الخطابية Discursive statements.

ب - لم يبد اهتمامًا بنظرية الوعي الإنساني واستخدام الرموز لما لها من أهمية في إثبات وجود الخطاب، وممارسة سلطته على الأفراد.

ج – لم تمنح الأهمية اللازمة لمساءلة المناهج المطروحة.

هذه الحدود مثلت قاعدة للباحث كيلر لما سيقترحه في مقاربته لمفهوم الخطاب من منظور علم اجتماع المعرفة.

2.2- دور الفاعلين الاجتماعيين في بناء الخطاب

لاستدراك وتفعيل أدوار الفاعلين الاجتماعيين في مسار بناء الخطاب، يمنح كيلرR.Keller مقاربته للخطاب سندًا نظريًا إضافيًا تمثل في توظيف تصور "باراديغم التواصل" Communicative paradigm الذي تأسس في نطاق علم اجتماع المعرفة في ألمانيا بهدف "فهم و تفسير نمط العلاقات الاتصالية التي تتجلى في الممارسات الخطابية للفاعلين السياسيين أثناء بناء خطابهم حول الحقيقة موضوعية"[5]. إن هذا الربط يعمل

المنارة للاستشارات

على فهم عملية انتقال المعارف من خلال الممارسات الخطابية اليومية Pratiques discursive quotidiennes للفاعلين الاجتماعيين في مسارات البناء الاجتماعي للحقيقة. كما يُظهر كيلر "أدوار الفاعلين الاجتماعيين في الخطاب من خلال تشكيل البنى والنظم الرمزية، ونقلها من التجريد إلى ميدان الممارسة الاجتماعية، وهو المعطى الذي يعطي ديناميكية للخطاب Dynamique discursive تفرز "نزاع تأويلات" Conflit d'interprétations لدى هؤلاء الفاعلين"[6]. إذًا أن مفهوم الخطاب كما يتبناه الباحث الألماني يعمد على إبراز عناصر الخطاب في حد ذاته، وهي :

أولاً : مادّية الخطاب The materiality of discourse

يقصد كيلر بمادّية الخطاب الأنماط التي يظهر فيها الخطاب كممارسات في شكل كلام، نص، حديث وصور مرئية يستخذمها الفاعل الاجتماعي بناءً على أوامر اجتماعية Social instructions، وهي أشكال يتواجد بها الخطاب في المجتمعات.

ثانيًا : الممارسات Practices

إن مختلف أشكال الأفعال تجسيد لـ "ممارسات الخطاب" Discursive practices ، وهي أنماط اتصالية يُقيّدها سياق الخطاب، ولكن من الأهمية بمكان مراعاة ما يسميه ميشال فوكو بـ "الظهور التاريخي- الاجتماعي لقواعد التشّكل" The sociohistorical emergence of rules of formation التي يُوظّفها ويُكيّفها الفاعلون الاجتماعيون أثناء عملية إنتاج الخطاب" .

ثالثًا: العُدّة Dispositif

يحرّك الفاعلون الاجتماعيون الخطاب، ويقوم الخطاب أيضاً بتحريكم بالتّأسيس لبنية إنتاج الخطاب والتي تعرف بـ"العُدّة". يعود راينر كيلر في تعريفه للعدّة إلى ميشال فوكو، والذي يحيل إلى ما يمكن أن يؤسس للبنى الأساسيّة التي يقيمها الفاعلون الاجتماعيون بهدف إيجاد حل لوضعية معينة بما فيها المشاكل الكامنة في النّشاط اليومي. كما تشمل العُدّة الدعائم الإدراكية، المادية، الممارساتية والشخصية المُستخدمة في إنتاج البنى الأساسيّة للخطاب ذي الدعامات المُتعدّدة (كلام، نص، صور مرئية)، وهذا ما يجعل العُدّة وسيطًا بين الخطاب ومجالات الممارسة.

على ضوء ما تقدم، يمكننا أن نُحدّد مفهوم الخطاب عند الباحث راينر كيلر من زاوية "إزدواجية البنية"، بمعنى أن الخطاب يتحرك في مستويين وهما :

المنارة للاستشارات

- **بنية التحليل الجزئي Micro analysis** : يظهر هذا المستوى في السمّات الداخلية المكوّنة لبنية الخطاب على ما جرى تفكيكها عند ميشال فوكو، والمتمثلة في: المادّية، العدّة والممارسات.
- **بنية التحليل الكلي Macro analysis**: إن هذا المستوى يسمح بفهم الخطاب في إطار "باراديغم التواصل" **Communicative paradigm** الذي تبلور ضمن مجال علم اجتماع تأويل المعرفة الذي تطوّر في ألمانيا كاستمرار لمدرسة البنائية الاجتماعية عند بورغر و لوكمان.

تأسيسًا على ما سبق، يقترح راينر كيلر **R.Keller** التعامل مع الخطاب كونه "ممارسات منتظمة ومبنية للرموز المُستخدمة في الحقول الاجتماعية، التي تشكل حقائقًا مصغّرة وموسّعة للعوالم الرمزية"[7]. والخطاب، في هذه الحالة، يؤدي دور الرابط التنظيمي بين مجموعة ذات خصوصّية للممارسات الملفوظة، ومضمون سيميائي يقترح بنية إدراكية - رمزية مُعينة للعالم، ومنه فإن أي خطاب يشكّل "معنى وحقيقة للعالم"[8]. ويتمظهر هذا البناء في تمثّلات العالم من خلال ما يمارسه الأفراد في حياتهم الاجتماعية اليومية، لذا ينتهي كيلر إلى الاستنتاج إلى أن الخطاب ممارسات اجتماعية حقيقية Real social practices تجسدها قدرات الفاعلين الاجتماعيين في بلورة مواضيع للنقاش، وتقدمها على أنّها "تأويل اجتماعي لتلك الممارسات. بتعبير آخر، فإن استخدام اللّغة و/أو الرموز من قبل هؤلاء الفاعلين يمنح للخطاب واقعية مادية للحقائق السوسيوثقافية"[9].

3- وحدات التحليل في مقاربة "سكاد" للخطاب

توظف مقاربة "سكاد" SKAD التحليلية مجموعة من المفاهيم تمّ استعارتها من مُعجم العلوم الاجتماعية، وقد حظيت تلك المفاهيم بتداول لافت في أبحاث علم اجتماع المعرفة لتتحول فيما بعد إلى "وحدات التحليل" Analytical units، وعليه يقوم هذا النمط من تحليل الخطاب على التمييز بين أربع وحدات يمكن عرضها على النحو الآتي :

- الصّيغ التأويلية Interpretative scheme
- تصنيفات العالم والواقع Classifications of the world , of the reality
- البنية السرديّة Narrative structure
- البنية الظاهراتية Phenomenal structure

وحين تلتئم هذه الوحدات التحليلية يتشكّل "الفهرس التأويلي للخطاب" répertoire Interprétative du discours ، وقد استعار كيلر R.Keller هذا المفهوم الذي ورد في نتائج أعمال الباحثين البريطانيين مارغاريت ويثريل M. Wetherell

المنارة للاستشارات

وجونثان بوترPotter J. . ويُعرّف الفهرس التأويلي بأنه "وحدة تلخيصيّة تعنى بتفسير الباحث للمصادر التي يوظّفها منتج الخطاب لتقديم تأويل للأشياء الواردة في مضمون الحديث، ويمكن لهذا الفهرس أن يكوّن كتلاً أو مجموعة معارف يستخدمها منتج الخطاب لبناء صيغته في النشاط أو الفعل Action والعمليات الإدراكية cognitive processes، فكل فهرس قد يتشكّل خارج التقيّد الصارم بمصفوفات الألفاظ التي تتولّد منها أساليب خاصة في الكلام" [10] . ومن الواضح أن مقاربة "سكاد" SKAD التحليلية لجأت إلى توظيف المفاهيم- الجسر Concepts - pont في بناء هذا المشروع البحثي، وفي هذا الصدد يُلمع كيلر R.Keller إلى أهمية التجاسر أو التجسير المفاهيمي كونه خطوة تعبّر عن خصائص وميزات الواقع الذي يريد أي خطاب إرساءه أو التأسيس له في إطار ما توفّره مجالات الوصل القائمة بين الحقل الخطابي للبناء الاجتماعي للواقع و ممارسات الأفراد اليومية[11] . وهذا الطرح يتمتع بالسند العلمي بحيث يرى كيلر بأن الوحدات التحليلية التي يوظّفها "أدوات لا تختزل التحليل، أوتُحدّده في أبعاد معينة مفترضة مسبقًا بناءً على نظرية الخطاب كما هو الشأن في المقاربات الأخرى"[12]. إلى جانب ذلك، يَضُم كيلر هذه الترسانة المفاهيمية للتأكيد على المنظور المفتح لهذه المقاربة مستهدفًا من وراء ذلك البحث عن "تحليل التأويلي" يتحرك في إطار مقاربة إمبريقية تكون مُشبّعة بالتأويل وتشترط فتح مجالات للتفكير والشرح والتفسير**.

هذا النمط من الاشتغال يعطي إضافة علمية للتوجّه البحثي في دراسات الخطاب على العموم والمجالات البحثية المتصلة بها على غرار ميدان البحث في حقل الإعلام والاتصال. على هذا المستوى من التفكير، ينحو كيلر R.Keller إلى إظهار جدوى التحليل الميداني للخطاب في بعده السوسيولوجي مستندًا في ذلك على عمودين أساسيين الأول: يهتم بإعادة بناء تحليل مادية الخطاب الذي تجسدّه الممارسات الخطابية والعدّة المرجعيّة من خلال تواجدهما في سياق سوسيو- تاريخي ما، فيما يُؤسس العمود الثاني للخطوات المنهجية لمعالجة مسألة المعرفة التي يرتكز عليها الفاعلون الاجتماعيون في مسارات بناء الخطاب، وهذه الخطوات هي "بمثابة تحليل رمزي للعالم والحقيقة اللّذين يُشكّلهما الخطاب قيد التساءل" [13] . وفي مسعى التفصيل في مقاربة تحليل الخطاب من مدخل علم اجتماع المعرفة "سكاد" SKAD ، نحاول الآن شرح كل وحدة من هذه الوحدات التحليلية.

المنارة للاستشارات

1. 3 - الصّيغُ التأويلية Interpretative scheme

نحت عالم الاجتماع الألماني أولريتش أوفرمان U. Oevermann مفهوم الصّيغ التأويلية في سبعينيات القرن الماضي ضمن ميدان البحوث الكيفية، غير أن هذا المفهوم، الذي يُعرّف أيضًا بـ"المخطط التأويلي"، شهد تطورات في مراحل لاحقة في إطار أبحاث علم الاجتماع. وقد استدار إليه الباحث الأمريكي إرفين غوفمان E.Goffman في سعيه لصياغة مفهوم "الإطار" Frame الذي وظّف بشكل واسع في البحوث الاجتماعية الأمريكية. كما تقترب فكرة الصّيغ التأويلية من تلك التي طرحها السوسيولوجي الأمريكي وليام غامسون G. William حول تصوّره لـ "الإطار" في نطاق بحوث التفاعلات الرمزية، بيد أن الباحث الألماني أوفرمان U.Oevermann حاول تناول "الصّيغ التأويلية" من زاوية التقاليد البحثية في الفكر الاجتماعي الألماني، والتي يُقصد بها كيفية تصور المعنى المراد والنشاط المرتبط بتوليد المعنى الذي يتناوله الخطاب، وهو المسوّغ هو ما حفّز راينر كيلر R.Keller للاعتماد على وحدة الصّيغ التأويلية في تحليل الخطاب آخذًا في الحسبان التحولات التاريخية والاجتماعية. إن الصّيغ التأويلية تتغذى، بالدرجة الأولى، من المخزون المعرفي الذي يولّده المجتمع، بما يمنح الخطاب أو الخطابات صيغة مُتعدّدة حسب تنوع تلك الصّيغ التأويلية، وأي خطاب يتمتع بالقُدرة على توليد صيغ أو مخططات تأويلية جديدة و كذا الشكل الذي تأخذه من خلالها الأجندة الاجتماعية بما يطبع أو يميّز أي خطاب. ما يمكن ملاحظته في هذا الشأن، هو أن وحدة "الصّيغ التأويلية" للخطاب ترتبط بالمخزون المعرفي أو الرصيد المعرفي الذي يُقرّب مقاربة "سكاد" من التحليل اللّساني للخطاب، وهنا يعتبر كيلر أن "هذا المخزون ينمو ويتطور داخل النظم الرمزية تاريخيًا، وله تواجد اجتماعي دائم"[14]، وبالتالي يمكننا فهم واستيعاب الخطاب على أنه ترتيب وتسوية مميّزة أو ذات خاصية متطوّرة، بمعنى أن المخزون المعرفي للخطاب يظل في طور التّشكل حسب السياقات التي يُنتج فيها.

تُوظّف الصيغ التأويلية في تحليل "سكاد" SKAD بشكل يتباين به عن مفهوم "الإطار" كما تمّ تناوله في تصوّر وليام غامسون W.Gamson وَ في البحوث الاجتماعية على العموم، حيث تُدرج الصّيغ التأولية في تحليل الخطاب، حسب طريقة لتحليل "سكاد"SKAD، يعني "مساءلة الخطاب كمؤسسة لإنتاج وتداول الأطر، واستكشاف أنواع الصيغ التأويلية التي يتضمنها أي خطاب"[15]، بصيغة أخرى يمكننا القول إن عملية التأطير تتوقف عند تحليل الإستراتيجية التي يستخدمها الفرد/ منتج الخطاب

المنارة للاستشارات

ويعتمد عليها لترتيب الحقيقة التي يدركها، وعليه فإن هذه الصّيغ قد "تتمظهر أو تبرز في أشكال مختلفة يعبر عنها المخزون المعرفي المُستخدم بهدف خلق تناسق وانسجام تأويليCohérence interprétative بين مختلف الملفوظات"[16]. لذلك فإن هذه الوحدة "تضع الحدود للخطاب، كما تشرح وتفسر ما يكون، وما لا يكون موضوعًا للخطاب"[17]، كما تعمل هذه الصّيغ بتنوعها على انتقاء المعنى البنّاء الذي يقود اهتمام الباحث صوب فهم البنية الداخلية للموضوع الخطابي المدروس. ومن ثمة فإن إستراتيجية هذه المقاربة التحليلية تستهدف إعادة بناء الخطاب بمنحى يتجاوز المقياس الكمي للكلمات المفتاحية أو الألفاظ المفتاحية الإستراتيجية التي تبنّاها ويليام غامسون W. Gamson وفريقه البحثي في أسلوبهم لتحليل الخطاب الإعلامي، بل إنه تفكيك للرصيد المعرفي المُستخدم الذي لا بد أن يَمتدّ ليشمل خلفية ما يُوّظف من ألفاظ و/أو مفاهيم، وَالمكانة التي تحتلها وكيفية تمظهرها في النص الخطابي.

2.3- تصنيفات العالم و الواقع Classifications of the world, of the reality

يتّصل العنصر الثاني بالمضمون المركّز للخطاب Content - focused analysis of disourses في مقاربة "سكاد" SKAD لتحليل الخطاب هو البحث عن التصنيفات الممنوحة للفاعلين الاجتماعيين واستكشاف أدوارهم ووظائفهم حسب ما يزخر به متن الخطاب. يلمع كيلر R.Keller إلى "أن كل خطاب يقترح أو يتضمن بصفة مُعلنة أو مُضمرة تصنيفات للعالم والواقع بما في ذلك تموقعات كل فاعل اجتماعي/ منتج الخطاب أو الموضوع المثار للنقاش والذي يتوجّه إليه الخطاب"[18]. إن مكانة التصنيفات في التحليل السوسيولوجي قُدمت في بداياتها من خلال أعمال السوسيولوجي الفرنسي إيميل دوركايم E.Durkheim، ولكن تلك الأعمال خيّم عليها البعد أثنولوجي أو الأنثروبولوجي، وهو ما وقعت فيه أيضًا الدراسات التي قامت بها الأنثروبولوجية البريطانية ماري يوغلاس M.Douglas في تشخيصها للأبعاد الأنثروبولوجية للثقافة. مع ذلك، فإن اللافت هو أن هذا البعد ظل غائبًا في بحوث الخطاب لحين تركيز بعض علماء الاجتماع، على غرار بيار بورديو P. Bourdieu وآخرون، فيما بعد على أهمية ومكانة التصنيفات في تحليل الخطاب، غير أن مقاربة "سكاد" SKAD تؤكد على أن التفكير في التصوّرات التي انصبت على تحليل التصنيفات في الممارسات الخطابية داخل المجتمع الحديث ظلت نادرة، ويوضّح راينر كيلر R.Keller موقفه قائلاً:

المنارة للاستشارات

"على حدّ علمي، إلى جانب أعمال الكلاسيكية في إطار نظرية إنسلام ستروس، وفي البحوث الاجتماعية قليلة أو تنعدم فيها التصوّرات التي اهتمت بتوضح كيفية تحليل التصنيفات في البحوث النوعية. وبات من المؤكد الآن بأن الأمر يتطلب نوعًا من السلوك التحليلي الذي يُفكّكُ وحدات النّص الخطابي بهدف إعادة ترتيبها (الوحدات) في شكل مائدة" [19].

"As far as know there is, besides some general work on classification in the Anslem Strauss tradition and in social studies of science, little or no reflection on how to analyse classification in qualitative research. Surely it requires a kind of analytical attitude which "deconstructs" discursive (textual) units in order to rearrange them in the form of tables."

وقد رجع الباحثون في علم الاجتماع والأنثروبولوجية الاجتماعية إلى أصول المعاني وتأثيرات التصنيفات عليها***، وهذه التصنيفات تملك تأثيرًا خاصًا على الفعل Action، بينما تضمن البارادايغم التأويلي تحليلاً لهذا الشق في الدراسات الخطابية التي عالجت مسألة التصنيفات. ومن هذا المنطلق يَدعم الباحث كيلر مبرّره باللّجوء إلى عناصر التصنيف Classifictory devices والتصنيفات لتحقيق تكامل مع فكرة "الصّيغ التأويلية" المتصلة بدورها في بناء وتكوين النظم الرمزية داخل متن الخطاب. إن هذه التصنيفات تأتي في أشكال ثابتة لسيرورة التنميط الاجتماعي، لكن قد تكون مصاغة بطرق مختلفة، منمطة ومُؤسسة من قبيل الأشكال الرمزية والعلامات المُستخدمة في البناء الخطابي للحقيقة كتصنيفات للعالم الخارجي، بحيث تَفصل فيه بين وحدات تضع قواعد خاصة بتلك التجربة وطريقة تأويلها، وهذا ما يُثير نوعًا من المنافسة بين ضروب الخطاب حول الكيفية التي يُؤول بها الرصيد المعرفي للخطاب المدروس. من باب تعميق التحليل، يُذكّر راينر كيلر R.Keller أن معالجة التصنيفات تعد جزءًا مُهمًا في التحليل لتدخّلها في بناء الهويات في سياق التمييّز بين وظائف "الأنا" و"الآخر" مستعينًا في ذلك بنتائج أعمال كل من الأرجنتيني إرنيستو لاكلو E. Lalcau والبلجيكية شانتال موفي C. Mouffe [20].

3.3- البنية السرديّة Narrative structure

يشير كيلر R.Keller إلى إن العناصر المكوّنة للخطاب وهي الصيغ التأويلية، تصنيفات العالم والواقع ترتبط ببعضها البعض بأسلوب معين أطلق عليه "البنية السردية"[21]. إن البنية السرديّة لا تنحصر في مهارات الربط أو التقنيات التي يلجأ إليها، عادة، منتج الخطاب (الفاعلون الاجتماعيون في هذه الحالة) للربط بين عناصر الخطاب

المنارة للاستشارات

السردية المتواجدة داخل المتن عن طريق الخيط القصصي Story line or plot الذي يجيب عن السؤالين: من يفعل ماذا؟ ولماذا؟، لكن مقاربة "سكاد" SKAD لتحليل الخطاب تُشدّد على وضع الحبكة mise en intrigue - على حد وصف الباحث الفرنسي بول ريكورP. Ricœur - كتعبير عن الأفعال التي تربط بين العلامات والملفوظات في قالب سردي، وهي تُعدّ من أساسيات الأفراد في معايشتهم للتجارب اليومية. كما تحمل سلسلة الأحداث الخطابية تطورًا تدريجيًا لقصة ما أو مجموعة من القصص، بمعنى آخر اسكتشاف ما يزخر به النص من العناصر المعرفية، وفي حالتين يقوم الخيط القصصي بعملتي دمج وتنظيم سير الخطاب من خلال توظيف ثنائية "آليات الذّاكرة" و"معطى التاريخ"، فمن منظور راينر كيلر R.Keller فإنه" بات من الضروري تحليل هذه الوحدة التي تُولّد التناسق وتعزز الانسجام بين العناصر المُشكّلة في النهاية الرصيد التأويلي للخطاب"[22]. وبالتأسيس على ما تقدم، يكون للبنية السرديّة القدرة على ربط التأويلات الممكنة و/أو المُتعدّدة للخطاب بشكل تواصلي ومتماسك، ومنه فإن بنية الخطاب تستمد تماسكها الخاص من خلال امكانية منتج الخطاب على بناء بنية سردية متناسقة ومنسجمة مع بعضها البعض.

وفي هذا المقام، يجدر بنا الإشارة إلى أن باحثين آخرين اقترحوا مقاربات لتحليل بنية العلاقة بين الفاعلين الاجتماعيين، ودرجة انخراطهم في القصة التي يُؤسسها الخطاب على غرار نماذج التحليل عند بول ريكور P.Ricœur وَ يوليان غريماس J. Greimas وَ أعمال الباحثة الألمانية فيرا فاهيهوفر V.Viehöver [23]. وما يتبدى لنا في هذه المقاربة التحليلية بأن الفاعلين الاجتماعيين يوظّفون الخيط القصصي لبناء تحالفات الخطاب وفق مستوى التباين في ميادين الممارسة الخطابية في إطار بناء الواقع الاجتماعي، ولا تعني هذه الفكرة عند راينر كيلر R.Keller تشابهًا بين البنية السردية وطرق صناعة العالم كما يفهمها الباحث الأمريكي نيلسون غودمان N. Goodman ، كون أن التباين يَكمنُ في مهارات كل فاعل اجتماعي في نسجه الذاتي لشبكات الخطاب و ضروبه ، وتتمظهر في شكل ممارسات اجتماعية للخطاب.

4.3- البنية الظاهراتية Phenomenal structure

تُعبّر البنية الظاهراتية في هذه المقاربة عن مُميّزات وسمات الواقع الذي يريد أي خطاب التأسيس له، وهذه البنية تمنح مستوى ثالثًا للمضمون البنائي للخطاب، لذا يرى صاحب المقاربة أن "هذا العنصر التحليلي يرتبط بصناعة المعنى، وما يتركه نشاط الفاعلين الاجتماعيين"[24]. إن البنية الظاهراتية، حسب رؤية، كيلر مستلهمة من فكرة

المنارة للاستشارات

البنية الجانبية Structure aspectuelle التي جاء بها الباحث الألماني كارل مانهايم K. Mannheim في عام 1920، وأدرجها ضمن الحقل البحثي لسوسيولوجيا المعرفة، ولكنّنا نبدي حرصًا على التّوضيح بأنه لا يقصد به بتاتًا تحليل حقيقة الظواهر بل تسيلط الاهتمام على البنية التي ترتكز عليها الظاهرة في حدّ ذاتها. ويترتب عن ذلك استنتاج يفيد بأن كيلر R.Keller يستوعب فكرة البنية الجانبية في مقاربته من مدخل بنائي، بصيغة أخرى يمكننا أن نستخلص بأن الباحث ينقل اهتمامه إلى هو مبني خطابيًا من ناحية اجتماعية، ومُقدم على أنه حقيقي لتحليل العناصر المُكوّنة للبنية الظاهراتية للخطاب داعمًا فكرته بالاستعانة بـ" نظرية التجذير" على وجه الخصوص الفقرات التي تتصل بـ"استراتيجيات الترميز النوعي" Strategie de codage qualitatif [25].

على هذا الصعيد، يمكن القول بأن هذه البنية لا تشير إلى كتلة وجودية Ontology entity المفترض أن تكون متصلة بالتمثّلات وأشكالها من ناحية، ومن ناحية أخرى، تلقي بعض الدراسات الخطابية نظرة عميقة إلى بعض العناصر المنتمية إلى البنية الظاهراتية، مع وجوب التنويه بالمواضيع التي يثيرها ثم يشكّلها الخطاب، ويُمكّن التفريق بينها على اعتبار أن الخطاب الذي ينتجه الفاعلون الاجتماعيون يتموقعون فيه على أنهم أبطال منقذون في فترة الأزمات، أو أشرارًا في فترات أخرى، لكن على العموم فإن لهؤلاء الفاعلين الاجتماعيين وظائف تُحدّد المسؤولية عن أفعالهم.

جدير بالذّكر أن الفاعلين الاجتماعيين في مقاربة تحليل الخطاب من سوسيولوجيا المعرفة ليسوا كتلاً جامدة لهم اهتمامات وإستراتيجيات و موارد ثابتة، وبالتالي فإن تحليل "سكاد" يتوقف عند السيرورات أو العمليات الخطابية التي تُبيّن "كيف يتطور دور كل فاعل اجتماعي من خلال تبيان الأساليب التي ينخرطون بها في أشكال بنية الخطاب، ويندرج فيه أيضًا قدرة الخطاب على خلق أو توليد نماذج من الممارسات تنمو في إطار قوالب تسمح لمنتج الخطاب بالتفاعل مع المسائل التي يثيرها الخطاب"[26]. إلى جانب ذلك، ينبثق عن هذا الاستعمال تأكيد على أن مفهوم البنية الظاهراتية يرتكز على المواضيع التي يطرحها الفاعلون الاجتماعيون للنقاش، ويربطها الخطاب بمرتكزات بعينها تُعدّ، في نهاية المطاف، عُدّة مرجعية لمنتج الخطاب بهدف معرفة الأبعاد المتنوعة للمفاهيم الواردة في الموضوع، وتربطه بها على نحو معين. وبالتالي نصل إلى استنتاج مفاده أن وحدة البنية الظاهراتية في تحليل "سكاد" SKAD الخطاب تقود إلى حصر و ضبط العناصر المعرفية الموظّفة كمرجعية لتلك الممارسات الخطابية عند الفاعلين الاجتماعيين أو بالأحرى مُنتج الخطاب[27].

المنارة للاستشارات

إن هذا الجانب لا يقف عند حدود نعت المُميّزات الرئيسية للمواضيع التي يُثيرها الخطاب، بيد أنّه تحليل ينظر إلى الخطاب عن طريق إسناده، والمراد به هنا هو البحث عن الأبعاد البنائية للخطاب أثناء التنفيذ الملموس أو المُجسّد Concrete implementation الذي لابد من شرحه خارج البيانات الإمبريقية، وهذا ما يصنع فارقًا جوهريًا، حسب وصف كيلر، مع مفهوم "المصفوفة الشرطية" Conditional matrix الذي يتبناه أنسلام سروس Anslem Strauss في "نظرية التجذير" The Grounded theory****.

4- القيمة المضافة لمقاربة "سكاد" SKAD لتحليل الخطاب

إن استعراض الوحدات التحليلية لتحليل الخطاب من مدخل سوسيولوجيا المعرفة يُبيّن أن هذه الوحدات تُستخدم في إطار الاشتغال على الجوانب المعرفية للخطاب Knowledge side of discourse ، كما أنها تمثّل مؤشرات على الكيفية التي يظهر بها الخطاب، وكذا التنظيم الذي يخضع له التحليل. ضمن هذه الزاوية، يلفت كيلر R.Keller إلى أنّه من الواجب استحضار أن إستراتيجيات تحليل البيانات النوعية لا يمكن إسقاطها من تجربة بحثية إلى أخرى، بل إنّها خطوات تحتاج للتّكيّف مع خصوصيّة المسائل البحثية والإشكالية المطروحة في دراسات الخطاب على تنوّعها وتعدُّدها، ومردّ ذلك أن "نتائج تحليل الخطاب لا تحتمل التعميم، ولا تنطبق تلك النتائج بشكل حتمي على كل البيانات قيد التحليل"[28]، وأي مادة تكون أجزاءًا من الخطاب أو "تجزئة للخطاب" Fragment of discourse قد تسمح للباحث للإجابة على أسئلة جزئية دون التخلي عن السؤال المركزي الذي انطلق منه. وعليه فإن هذا المنطلق يُغني البحوث النوعية في تحليل الخطاب التي بوسعها الاستعانة في خلفيتها النظرية وترسانتها المفاهيميّة بمفاهيم أخرى أو تعوّض المفاهيم التي استعان بها كيلر في تحليل "سكاد"، وهو مدخل يترجم المنظور المنفتح لهذه المقاربة والداعي إلى ضرورة تبنى الاشتغال المنفتح على المفاهيم التي توصلت إليها البحوث الاجتماعية، ومن ثم توظيفها في تحليل الخطاب لبلوغ نجاعة أكثر لنتائجه.

نسمح لأنفسنا القول انطلاقًا من الدعائم المعرفية والخلفية المنهجية لمشروع "سكاد" لتحليل الخطاب، إنّها مقاربة تساير الخط السيميائي في التحليل، لما نرى بأن كيلر R.Keller يستعير بالمفاهيم التي أخصبتها الدراسات السيمائية في التحليل، ويحوّلها إلى وحدات للتحليل مع توسّل أدوات التقصي المُستخدمة في أبحاث ميدانية من مجالي الأنثروبولوجية واللّسانيات دون إهمال التراكمات المعرفية التي أرستها تيارات البحث الأخرى في دراسات الخطاب، في سعي منه لفهم يتصف بالشمولية لبنيات الخطاب، وتوضيح الدّلالات التي يمكن أن يضمرها أي نص خطابي ما.

المنارة للاستشارات

من الواضح أن راينر كيلر R.Keller يقارب تحليل الخطاب من مدخل علم اجتماع المعرفة على فهم نظري يتمتع باللّيونة Subtle في تحليله للممارسات الاجتماعية وعلاقتها بسياسات المعرفة في إطار البناء الخطابي للحقيقة، وليس الوقوف عند ثبات واستقرار المخزون المعرفي. ومن ذلك، نُعلي أهمية القيمة المضافة لهذه المقاربة مقارنة بمقاربات الأخرى تحديداً ما أتى به الباحثون في التيارات البحثية في المدرستين الفرنسية والأنجلوساكونية، وهي على النحو التالي:

أولاً: إن الاهتمام النظري والإمبريقي لتحليل "سكاد" SKAD يتموضع في المسارات الاجتماعية للإنتاج وانتشار المعرفة إلى جانب تفكيك البنى الرمزية، ويساعد في تحليل توجهات الفاعلين الاجتماعيين وممارساتهم في عوالم المعرفة والمعانى.

ثانيًا: إن الدفع في اتجاه التمسك بأهمية دور الفاعلين الاجتماعيين في هذه المقاربة يأتي في صميم تجنب جعل المعرفة كتلة وجودية ثابتة، إذ أن مواقع هؤلاء الفاعلين تُحدّد بصفة مسبقة من قبل الخطاب، غير أن الفاعلين ليسوا تابعين لخلفية الخطاب بل مُتفاعلين ونّاشطين ومُبدعين ومنخرطين مع القوى الاجتماعية وهي في وضع صراعي فيما بينها من أجل إضفاء التأويلات الممكنة.

ثالثًا: تستعين هذه المقاربة بمفاهيم الباراديغم البنائي في علم الاجتماع ، فتحليل "سكاد" SKAD للخطاب ينظر إلى المؤسسات الاجتماعية المُنتجة للمعنى والخطاب على أنها مؤسسات متبلورة مؤقتًا أو قد تواجه عمليات تجميد للنظم Frozen proccesses of ordering التي تسمح بتنشيط أدوار الفاعلين الاجتماعيين.

رابعًا: يعمل تحليل "سكاد" SKAD للخطاب على الإحاطة بالأبعاد التاريخية للمعرفة وعملية صناعة المعرفة، ولكنه تحليل يفتح لعلم اجتماع المعرفة باب الاشتغال على بنية الخطاب في الأنظمة الاجتماعية وسياسات المعرفة.

خامسًا: تفترض هذه المقاربة أن دراسات الخطاب لا بد أن تكون عملاً تأويلاً، وهذه النظرة لا بد أن تتجسد في التطبيق المنهجي الإمبريقي، وتحليل "سكاد" SKAD يَحجز مكانه في البحوث النوعيّة في العلوم الاجتماعية على العموم .

سادسًا: تعتمد هذه المقاربة على "نظرية التجذير"The Grounded Theory بمعنى أنها تتبع استراتيجية بناء نظري تصاعدي للخطاب، وليس المقاربة التنازلية المهيمنة في كثير من الأحيان على المنطلقات النظرية في تحليل الخطاب كما هو الشأن في باقي المقاربات.

المنارة للاستشارات

5- الخاتمة

إن هذه العناصر الستة تعدّ مركز قوة هذه المقاربة، وتجعل من تحليل الخطاب من منظور سوسيولوجيا المعرفة ("سكاد" SKAD) يحتل مكانة في الحركة البحثية التي تستهدف إعادة بناء العملية الخطابية التي تحدث في البناء الاجتماعي والاتصالي، وفهم سيرورة بناء المعانى في الفضاء المؤسساتي والقضايا العمومية. انطلاقًا من ذلك، خاض عدد من الباحثين تجربة توظيف المقاربة، التي يقدمها الباحث راينر كيلر R.Keller على أنها مشروع بحث، على غرار الدّراسة التي أجراها سيباستيان بتشمان Sebatian Bechmann حول "سياسة الرعاية الصحية" Health care policy عام 2007، إلى جانب البحث الذي أعدّه بيتر أورتتش Ullrich Peter عام 2008 و الموسوم : "بناء الهويّة عند التيارات الاجتماعية لليسار المتطرف في ألمانيا وبريطانيا" ، Identity buiding in left wing social mouvements in Germany and Great Britain. كما ننوه، في هذا السياق، إلى الورقة البحثية التي قدمتها ريكستا ويندراك Rixta Wundrak نشرت عام 2010 وتطرقت لـ" الجماعات الصينية المهاجرة في رومانيا Chinesse migrant communities in Roumania.

وترفع هذه التجارب البحثية منسوب الشجاعة العلمية لدينا للاجتهاد والسعي للاستعانة بهذه المقاربة في البيئة البحثية الجزائرية وفتح نقاش حول فعاليتها وقيمتها المضافة، في ظل توجهها نحو تبنى نمط الاشتغال المنفتح على المفاهيم والأدوات البحثية من مختلف التخصصات في العلوم الاجتماعية لتطوير دراسات الخطاب.

المنارة للاستشارات

الهوامش

*L'analyse de discours du point de vue de la sociologie de la connaissance.

1-Reiner Keller, "L'analyse de discours comme sociologie de la connaissance: Présentation d'un programme de recherche, Langage et société, N°120, juin 2007, France, p64.

2-Peter Ullrich and Reiner Keller, "Comparing discourse between cultures: A discursive approach to movement knowledge", In conceptualizing culture in social movement research, Palgrave Studies, p53.

3-Reiner Keller, "Entering discourses: A new agenda for qualitative research and sociology of knowledge", Qualitative Sociology Review, Volume VIII, Issue2, 2012, p53.

4-Ibid , p52.

5-Peter Ullrich and Reiner Keller, Op.Cit,p122.

6-Reiner Keller, L'analyse de discours du point de vue de la sociologie de la connaissance : Une perspective nouvelle pour les méthodes qualitatives, Recherches Qualitatives, hors-série, N° 3, Canada, 2007, p298.

7-Reiner Keller, The sociology of knowledge approach to discourse, Springer science, Published online 22 April 2011,p46.

8-Reiner Keller, "Entering discourses: A new agenda for qualitative research and sociology of knowledge", Op.Cit, p54.

9-Peter Ullrich and Reiner Keller, Op.Cit, p122.

10-Margaret Wetherell and Jonathan Potter," Discourse analysis and the identification of interpretative repertoires", In Charles Antaki, Analyzing Everyday Explanation: A casebook of methods, SAGE publications, UK , 1988, p172.

11-Reiner Keller, "L'urgence surprise. Analyse de discours: Entre modèles théoriques et rapprochement à la réalité discursive", Recherches Qualitatives, Hors-série, N°6, Canada, 2008, p51.

** يلفت بعض الباحثين إلى ضرورة الاحتراس من الوقوع في تقديم معرفة غير مكتملة نتيجة الوقوع في أخطاء المناهج التأويلية التي تتحدد في إطار العلاقة بين الذات الباحثة وموضوع البحث، وتُعيّن نوعين من الأخطاء وهما: التأويل المفرط surinterprétation والتأويل الناقص sous interprétation ، فالخطأ الأول يدفع، في أحيان كثيرة، بالخطاب العلمي في اتجاه خطاب دغمائي وإيديولوجي ومعياري، بينما ينتج الخطأ الثاني معرفة تقترب من الحس المشترك، الذي يعكس لا كفاءة في إنتاج المعارف المتصلة بالذّاتية المطلقة واليقينيات والتبسيط والثنائيات المتناقضة. وهذا ما حذا بالدّارسين إلى الاعتماد على "نظرية التجذير" للتأصيل النظري والمنهجي للتحليلات، وهو ما قام به راينر كيلر R.Keller في تأسيس مقاربته لتحليل الخطاب من منظور علم اجتماع المعرفة. سعيد لوصيف، "التفكير المنهجي في الظواهر الاتصالية : التعقيد و التجاسر المعرفي بين التخصصات والتموقع الإبستمولوجي" ، التفكير في منهجيات دراسة الإعلام والاتصال في المجتمع الجزائري : التموقعات الابستمولوجية والتقاطعات المعرفية ، مخبر استخدامات وتلقي المنتجات الاعلامية

المنارة للاستشارات

والثقافية في الجزائر، الطبعة الأولى، السداسي الثاني 2016، كلية علوم الإعلام والاتصال ، جامعة الجزائر 3، ص 71.

13-Reiner Keller, The sociology of knowledge approach to discourse, Op.Cit, p68.
14-Reiner Keller, L'analyse de discours du point de vue de la sociologie de la connaissance : Une perspective nouvelle pour les méthodes qualitatives, Op.Cit, p300.
15-Reiner Keller, "Analysing discourse: An approach from the sociology of knowledge", Methods Revue, p236.
16-Reiner Keller , The sociology of knowledge approach to discourse, Op.Cit, p62.
17-Peter Ullrich and Reiner Keller, Op.Cit, p126.
18-Reiner Keller, L'urgence surprise. Analyse de discours: Entre modèles théoriques et rapprochement à la réalité discursive, Op.Cit, p51.
19-Reiner Keller, Analysing discourse: An approach from the sociology of knowledge, Op.Cit, p236.

*** استعان المفكر الفرنسي ميشال فوكو M.Foucault بالتصنيفات العلمية Scientific classification على مستوى التحليل المُجرّد، بيد أنه تعامل في جزئيات مع تصنيف الممارسة Practical classification أو التصنيفات كممارسة اجتماعية Classifications as social practice من خلال المفاهيم الثنائية Binary concepts على غرار الصحة /المرض ، العقل /الجنون، الذات الباحثة/ موضوع البحث . لمزيد التوسع أنظر:
Reiner Keller, Analysing discourse: An approach from the sociology of knowledge, Op.Cit, p236.
20-Ibid, p51.
21-Reiner Keller, L'analyse de discours comme sociologie de la connaissance : Présentation d'un programme de recherche, Op.Cit, p70.
22-Reiner Keller, L'analyse de discours du point de vue de la sociologie de la connaissance : Une perspective nouvelle pour les méthodes qualitatives, Op.Cit, p301.
23-Reiner Keller, Analysing discourse: An approach from the sociology of knowledge, Op.Cit, p237.
24-Reiner Keller, L'analyse de discours comme sociologie de la connaissance : Présentation d'un programme de recherche, Op.Cit, p 68 .
25-Reiner Keller, The sociology of knowledge approach to discourse, Op.Cit, p68.
26-Reiner Keller, L'analyse de discours du point de vue de la sociologie de la connaissance: Une perspective nouvelle pour les méthodes qualitatives, Op.Cit, p301.
27 Reiner Keller, L'urgence surprise. Analyse de discours: Entre modèles théoriques et rapprochement à la réalité discursive, Op.Cit, p51.

**** تُعرّف "المصفوفة الشرطية" على أنها مجموعة من الدوائر مُتحدة المركز، وكل مستوى يقابله وحدة من التأثير، ففي المركز تتواجد النشاطات والتفاعلات، بينما تمثل الدوائر الداخلية

المنارة للاستشارات

التأثيرات الفردية والجماعية على هذه النشاطات، أمّا الدوائر الخارجية فهي تعبير عن التأثيرات الوطنية والدولية. ونريد التوضيح على أن "نظرية التجذير" تشترط في تحليلها افتراض وجود "مصفوفة شرطية" من شأنها وضع أطر تحليلية لحث الباحثين على التفكير في العلاقة بين التحليل الكلي والتحليل الجزئي، لذلك تكمن أهمية هذه المصفوفات كونها تسهم في تأطير "القصة" لأنها نواة صياغة "نظرية التجذير".

Reiner Keller, L'analyse de discours comme sociologie de la connaissance : Présentation d'un programme de recherche, Op.Cit, p68 .

28-Ibid, p238.

المنارة للاستشارات